كلهنّ خائنات

نجلاء القاضي

لم تكن إلا ومضة نور تسللت سهوًا ضد طبيعة الظلمة التي صنعت منها حواء.

حين قال لها هامسًا وبتأكيد لا يقبل الاحتمالات.. ستكونين لي

****

صـــباحًا جديدًا مكررًا، نهض متثاقلًا يجر قدميه كأنه في عداوة مع الاستيقاظ الكامل الذي يحاول أن يؤجله قدر استطاعته يحمل تلَّة من هموم نامت بين أحضـــانه واعتلت أكتافه فور اســـتيقاظه مع صـوت المنبه الصـادح، عيناه مجهدة من محاولته رفع ثقل جفنيه عنهما، كان كعادته منذ ذلك التاريخ الأســـود.. كتلة من الإحباط والغضب الأعمى.

يمشي على قدمين لا يملك هدفًا في الحياة ولا يجد لها مبررًا إلا فقط من أجل إثبات أن النســـاء مخلوقًا دونيًا لا يســـتحق الحياة، كلهن خائنات والشريفات منهن ينتظرن الفرصة.

جلس عمار خلف مكتبه في تلك البناية المطلة على وســـط البلد تكســـو وجهه نظرة اشـمئزاز وهو يتابع عاملة البوفيه تضـع فنجانه الأول من القهوة لهذا الصـــباح التي بدورها كانت تعلم أنه يرمقها بنفس تلك النظرة التي اعتاد على توجيهها إليها؛ كلما أحضرـت له شيئًا كان يتفنن في صرفها بقدر مناسب من الازدراء.

_"أظن أن البطء في عملك هو طبيعة نسـائية مهما اعترضـت عليها لا فائدة في تغييرها".

قالها مشـــيرًا إليها بالانصرـــاف، خرجت متعثرة إحدى قدميها في الأخرى متلهفة على إغلاق ذلك الباب بينهما وضـــع نظاراته وردد بهمس:

_"كلهن خائنات"

ثم بدأ في ممارســة عمله برتابة يتخلل تفكيره ما حدث له في صــورة لمحات لا تتركه يســتريح رغم ما يؤول إليه جســده من تعب، كان يعمل في بنك اســتثماري منحه مســتوى معيشيٍ مناســب، لم يكن يشــكو من قله المال بل كان كما يقال (مســتورًا)، لم تكن تلك الســاقطة في حاجة للذهاب إلى منزل مشــبوه من أجل حفنة مال، بالتأكيد كانت تذهب لمزاجها الخاص؛ ظل منهمكًا في دراســة حســابات العملاء متأففًا إذا صــادف أن كان أحد هؤلاء العملاء من صــنف النســاء حتى لو كان اللقاء بينهم على صــفحات حســاباتهم الرقمية وبأسماء لا تعني له شيئًا..

قطع عليه اســترســاله رنين هاتفه المحمول نظر إليه بطرف عينه أسفل نظاراته ليجد رقم شــوقي ابن خاله وصديق عمره سارع بالرد عليه:

_"حبيبي فيك الخير والله لا يســتطيع أحد إخراجي عن القضــبان غيرك"

أتاه صوته ضاحكًا:

_"قضبان كلمة مناسبة للرجل المناسب ..... سندعوك عمار قطار الصعيد"

ردَّ بأسى:

_"والله يا ابن خالي يا ليتني كنتُ قطارًا حقيقيًا من حديد وصـــفيح يقع مني ما يقع دون أن أشـــعر به أدهس من تقف في طريقي من العاهرات"

غادرت البهجة صوت محدِّثه ثمَّ سأله بعد برهة صمت:

_"ألم تكتفِ بعد؟ ألم يأنِ للنسيان أن يريح عقلك من تلك الذكرى الكئيبة، هي مجرد امرأة من ملايين النساء نالت ما استحقت على يد القدر، فحتَّاما ستظل حبيس ذكراها معاديًا لكل جنس حواء ".

هدر به مقاطعًا حديثه:

_"إلى متى ســـتظل معتقدًا أن هناك اختلاف بين أنثى وأخرى بين حية رقطاء وغيرها؟"

كل يوم منذ عام مضى يشهد على خيانة جديدة لمزيد من النساء كل يوم يتم توقيع مزيد من العقود والعهود بينهن وبين الشـيطان، على أن يظلوا مخلصـــين فقط لذلك العهد بالخيانة، ألم تُثبِت مئات العلاقات التي أقامها على تلك الشبكة العنكبوتية في الفراغ أن ما من امرأة شريفة وما من بكارة أو طهر في تلك النفوس الخربة والأجســـاد المبتذلة لفتاة مراهقة أو زوجة عتيدة كلهن على حد ســواء عاهرات بالفطرة، وها هو يثبت ذلك مع كل امرأة عثرة الحظ، أوقعها حظها في قبضـــة يده، وعلى قدر مقته وبغضـــه للخيانة إلا أنه كان يعتبر نفســـه تلك اليد التي تنزع عنهن ورقه التوت التي يوارين ســـوءاتهنَّ خلفها، هو تلك الفرصـة التي يتحينَّها للشروع في خيانة ضـمرنها في

نواياهنَّ العفنة، اســـتفاق من شروده على صـــوت يناديه في همس محاولًا تهدئته:

_" أرجوك تمالك نفسك واسترد وعيك واسترجع حياتك أنا أعلم أن الصدمة لم تكن هينة لكن أرجوك لا تدعها تفسد الباقي من حياتك وروحك ارجع مرة أخرى وألقم ذكراها للنسيان"

صمت يعقبه صمت تلاه إنهاء المكالمة من قِبَله بكلمات مقتضبة مانحًا الأخر موعدًا بالمساء في بيت جدته بالسيدة زينب حيث نشآ معًا وقضَوا معظم طفولتهما وشبابهما، أنهى عمله واتخذ طريقه إلى السيدة زينب بعد أن استقل سيارة أجرة فهو ليس بمزاج يسمح له بقيادة سيارته ال 128 العتيقة ولا أن يستقل وسيلة مواصلات عامة، فترك سيارته بجانب الطريق غير مبالٍ بما سيكون عليه حالها صـــباحًا، ألقى بجســـده على المقعد الخلفي للســـيارة وترك عقله المنهك يعود به إلى تلك الليلة مســـتعيدًا انكســـاراتها مســـتعذبًا ما تسببه له من ألم أدمن تكراره ليتخذ منه دفعة وحافزًا على مواصلة انتقامه ..

ثناء حبيبة العمر وتوأم الروح ابنة القلب التي لم ينجب غيرها منذ أن شـب على عشـقها وشـاب على خيانتها، زوجته التي اكتملت بها رجولته، حين تزوجها ودفن معها كبرياءه حين دُفِنَت بعارها، وكأن القدر شـــاء أن يُدفن حيًا لأجلها مثلما كان يحيا لأجلها، بســـببها ما زالت الذكرى تطرق رأسـه بمطرقة من نار فتحرق قلبه مرارًا وتكرارًا،

ويفيض الجحيم داخله فيلحق الشـر كل أنثى قُدِّر لها أن تقترب منه...

الثالث عشر من شهر ديسمبر يوم الأربعاء الساعة التاسعة مساءً، عسكريٌ بالباب يطلب منه الحضور لاستلام جثة زوجته المدعوة _ثناء سيد علام_ حيث تُوفِّيت في أحضان رجل آخر حين داهمت الشرطة المنزل الذي اعتادت الذهاب إليه بصُحبة مجهول، تمكن من الفرار قفزًا من النافذة ولم يُعثَر على أثره، لم يترك خلفه إلا قطعة من قميص أسود اللون عُلق بالنافذة أثناء قفزه، لم يكن في وعيه وهو يوقع على تلك الورقة التي تسلَّمها، كان كمن يوقع على شهادة وفاته، وميلاد جديد من رحم الألم والذل والانكسار ميلاد مشوه لا إنسانية فيه لرجلٍ آخر أقسى من قطعة حجر صُهرت بالجحيم، استفاق من شروده على صوت السائق يسأله، أي طريق يسلك فقد وصلا إلى حي السيدة....

_"هنا من فضلك"

تلفَّظ بها في مكان ما، فتوقف السائق حيث أشار، على ناصية زقاق أضيق من أن تمر به سيارته، ترجل منها ناظرًا لنهاية الزقاق حيث منزل جدته بينما كان يواجهه من الطرف الآخر منزل ثناء القديم، شعر بشيء من حنين موجع تلاه انقباض وضيق في صدره، نفض رأسه يمينًا ويسارًا علَّه يسقط بعض الذكريات ويخفف من حملها على كاهله، مضى منحنيًا صوب وجهته لا يرفع رأسه عن موطئ قدميه حتى وصل لباب البيت.

فتح له شـوقي الباب وبدت في عينيه نظرة شـفقة، سرعان ما واراها عنه بضحكة صاخبة لئلا يزيد من معاناته قائلً:

_"ادخل يا صديقي اللدود"

بادره بالسؤال في ضجر:

_" لا أعرف لماذا تصرـــ على المكوث في هذا المنزل بعد وفاة جدتي خاصة وأنك تملك ما يكفي لشراء شقة جديدة"

على الرغم من أنه كان ميســـور الحال بالميلاد، وورث عن والده ما يســتطيع أن يحصــل به على منزل فاخر في أرقى حي إلا أنه تمســك بالإقامة في منزل جدته التي كانت كأم بديلة له، فقد تُوفيت وهو صـــغير جدًا حتى أنه لا يملك لها أي ذكرى مشـــتركة يســـتطيع أن يستدعيها في لحظات الحنين، وتركته مع أب فاتر المشاعر متسلط بطبعه، لم يكن له أحد بعدها إلا جدته التي كانت بدورها رغم عطفها عليه وحبها له إلا أنها لم تتوقف عن تمييز عمار عنه كونه أول أحفادها وفرحتها على حد تعبيرها؟

أخرجه من غيمة ماضيه البعيد تذمر الآخر أمامه قائلًا:

_ "أنت تعلم أني لا أحب المجيء إلى هنا تعلم ما تفعله بي رؤية منزلهم حتى لو لم يعودوا هنا بعد الفضيحة"

قاطعه ممازحًا في محاولة منه لامتصـــاص غضـــبه، حيث انحنى نصف انحناءة قائلًا:

_"يبدو أنني سأستسلم لك أخيرًا شوقي سيرفع الراية البيضاء وينزل عند رغباتك ويذهب لعالم آخر وشقة أخرى لقد وجدتها يا صديقي

وجدتها كما قال نيوتن لقد سقطت على أم رأسي من الشجرة"

قالها وأخذ يتلعثم عن قصد:

_" اااا ...أقصـد من الشـبكة، لكن انتظر بعض الوقت لأعرف عنها أكثر"

سـاد بينهما الصـمت فور انتهاءه من جملته التي فهم منها الآخر أنه يتحدث عن امرأة ما يريد الارتباط بها، فنظر له نظرة خالية من الدهشة متسائلًا:

_"هل هذا مزاح كعادتك؟ هل ما زلت تستطيع أن تثق في امرأة؟ أن تسمح لها بحمل اسمك، أيمكن أن تضع عرضك وشرفك وسمعتك بين يدي امرأة"

كان يتحدث بكثير من الاحتقار ثم عاد يسأله:

_" ألم يكن لك فيما حدث لي عبرة وعظة"

قاطعه مشيرًا بيده لأقرب مقعد داعِيَهُ للجلوس ثم بدأ يلقِّنه:

_"أرجوك ليست كل النساء على نفس الشاكلة، ربما هناك جزءًا من القصة لا نعلمه تكون فيه ثناء مظلومة"

قالها بصـــوت خافت على عجل كي لا يتوقف عندها ويثور كعادته كلما حاول أحد التخفيف عنه بالدفاع عنها، ثم أني طلبت منك أن تأتى اليوم تحديدًا من أجل هذا الموضوع، هي فتاة على قدر كبير من الخلق والتدين في منتهى الرقة لم أرَ صـــورتها بعد لكني أشـــعر أني بالفعل أحببتها، صـــادفتها على إحدى الصـــفحات في الشـــبكة

العنكبوتية، أعجبني كل حرف طبعته منذ ثلاثة أشهر في حوارها وفي قناعاتها وشـخصـيتها البادية في اختياراتها، حاولت أن أتعرف إليها وجهًا لوجه فأبت بكل الطرق.....

قاطعه بحدة:

_"لأنك سـاذج لا تعرف من أين تُؤكل الكتف كل ما في الأمر أنت لم تضـغط عليها بالقدر الكافي وهي أجادت التمثيل وثبتت قناع العفة جيدًا، ووراءه نفس نون النسـوة المبتذلة، الخيانة ذاتها، والقصـة عينها، سـتظل طاهرة بريئة إلى أن تجعلك تأكل الفاكهة المحرمة ثم تجد نفسـك مطرودًا من الجنة، ومن ثمَّ يظهر شـيطانها ليسـخر منـك، وحينهـا لا عزاء للمغفلين أمثـالي وأمثـالـك إذا أصررت على سلوك نفس الطريق"

اسـتمر بينهما الجدل والنقاش تارة بغضـب وتارة ببعض الهدوء والمزاح الحذر حتى أُنهِكا معًا، تنهد أحدهما بعد أن فرغ صبره مانحًا الآخر هدنة مؤقتة حتى يحكم عليها بنفسـه من خلال حسـابها على الفيس بوك، اتخذ قراره ممسـكًا بيده ومتجهًا نحو هاتفه الخلوي الذي كان يعرض صـفحتها على الانترنت، تركه يتجول به ثم ذهب لإحضار طعام الغداء..

بينما وجدها فرصـة جيدة ليأخذ عنوان صـفحتها ويحاول أن يثبت لصـديقه سـوء عاقبة الارتباط بها، متخذًا عهده بأن يحميه من نفسـه ولو رغمًا عنه ويظهر له كم هي فتاة رخيصـة كجميعهنَّ، وأنه فقط لم يعرف كيف يصل إليها أما هو فقد أصبح محنكًا وقادرًا على اصـطيادها كذبابة وقعت في شـبكة عنكبوت عتيدة في اصـطياد

أنواعها من الذباب، يوم جديد لا يغير الكون عاداته تشرق شمسه في نفس التوقيت وتغرب كما قدر لها لا يؤخرها بؤس ولا يستدعيها فرح.

فتح حاسوبه فور وصوله إلى شقته بحي الجيزة بعد أن أنهى عمله المعتاد ممسكًا بشطيرة أخذ يأكلها على عجل، فلم يكن لديه صبر للبدء في دراسة وتحليل واصطياد تلك الحشرة ذات نون النسوة المدعوة رغد التي يتابعها شوقي، جلس ساعتين يراجع كل ما وضعت من ملصقات وكل ما كتبت من تعليقات، راجع اهتماماتها وأصدقائها ماذا تفضل ومن تفضل ماذا تشاهد ومن تشاهد من تحاور وكيف تحاور، ثم قام بصنع العديد من الحسابات الوهمية بأسماء سيدات ورجال بشخصيات مختلفة، فذاك حساب لشخص رومانسي عاطفي وتالي لشخص سادٍ ومتعجرف وآخر لشخص ثري يقابله حساب لشخص فكاهٍ وآخر جاد، وهكذا إلى أن أصبح مستعدًا للمواجهة، أغلق عينيه مع إغلاق حاسوبه وذهب في سبات لم يخرجه منه إلا صوت المنبه ليتكرر يومه كشريط معاد مهترئ من كثره التكرار ولكن بفراغ صبر أكثر من المعتاد فاليوم سيبدأ بتنفيذ خطته عاد مسرعًا إلى المنزل، صنع كوبًا من الشاي وجلس في فراشه منكفئا على حاسوبه يردد بثقة

_" لن أكون آسفًا لك يا صديقي بل أنت من سترجوني لقبول اعتذارك حينما أريك الحقيقة بعينيك وأكشف لك احتيال تلك الفتاة".

أرسل لها طلب صداقة من كل حساب صنعه مسبقًا وانتظر متحينًا الفرصة ليشتبك معها في حديث، يمضي الوقت بطيئًا مثيرًا للضجر ثقيلًا على النفس حينما نكون قيد الانتظار، ظل منتظرًا أي استجابة أو ظهور لها، حاملًا حاسوبه معه أينما ذهب فلم يكن له صبر على صنع حتى كوب من الشاي إلا بصحبته، منتبهًا لأي إشارة أو صوت يشير لأي استجابة منها، وأخيرًا بعد مضي ثلاث ساعات كاملة كأنهم دهر بأكمله، تمت الاستجابة لثلاث طلبات صداقة من قبلها اثنين بأسماء مستعارة لفتيات وطلب واحد باسم رجل امتلأت صفحته بالملصقات الدينية والحكم والمواعظ، ارتفع صوت عمار بالضحكات ورطن ببعض الكلمات الساخرة:

_" كم هن النساء منافقات يبدين في العلن عكس ما يبطنَّ في الخفاء" .

حكَّ يديه إحداهما بالأخرى قائلًا بصوت قاسٍ بارد كبرودة الأموات:

_"مرحبًا بكِ في عالم الخيانة وجحيم عمار الذي لا يكتفي ويرغب بالمزيد من تعرية نفوسكن النجسة".

أرسل لها رسالة باسم واحدة من الفتيات اللاتي قبلتهنَّ وخاض معها نقاشًا عن الملابس والحجاب والطبخ فعلم منها ماذا تفضل من المواضيع وأثنى على خفة ظلها ثم توجه إليها بطلب

_"أرجو أن نصبح أصدقاءً لعمر قادم فأنا وجدت فيكِ الأخت التي لم أحظ بها في الحقيقة"

ختم لقائه معها على ذلك الحساب ومن ثم انتقل إلى الحساب الآخر لذلك الرجل الخلوق صاحب الفضيلة كما ينبئ حسابه، ارتدى

رداء الفضـــيلة وأحكم زنـاره ووقع اختياره على نص من الرقـائق الدينية التي تمســـح القلب بأيادي الرحمة الإلهية وأرســـله لها في رسالة خاصة شاكرًا لها على قبول الإضافة، انتظر قليلًا فلمَّا لم يتلقَّ اسـتجابة أزاح حاسـوبه جانبًا محاولًا اسـتدعاء بعض الهدوء لعقله حتى لا يفسـد المهمة باسـتعجاله للنتائج؛ عاد بذهنه سـنوات للوراء ففي منزل العائلة الكبير بحي السـيدة زينب تذكر كان كيف كان يحتسي الشاي الذي صنعته له جدته رحمها الله بعد الغداء وكيف كانت تمزح معه وتغمز له بعينها قائلة:

_"الشـاي لا يحلو إلا في الشرـفة يا عَمَار بيت جدتكَ وأول فرحتي بحفيد"

هكذا كانت تدلله، وهكذا كانت تنبئه بأنها تعلم أن ثمَّة من هي بانتظاره بشرـفتها الخاصـة في الجهة المقابلة لهما، فيبتسـم خجلًا مخفيًا حقيقـة مـا فهم من تلميحـاتهـا وينطلق إلى حيـث تنتظره الفاتنة، فتنظر للأسـفل حياءً فور أن تلمحه وترفع رأسـها بين الحين والفينة تتلصص عليه، عيناها الجميلتان كانتا أجمل عينين رآهما في حياته وأكثرهم براءة، انتفض على صـوت الرسـالة التي انتزعته من ذكرياته .

_"أشـكرك أخي الفاضـل كم هو جميل ما أرسـلت لقد زال الكثير من قلق النفس باليسير من الكلمات ".

قرأ كلماتها على عجل ثم تأنى في التحليل والتفسير فقد أعطته مفتاح البداية من خلال كلماتها..

_"الشكر لله وحده أيتها العزيزة، ولم القلق لنفس يبدو عليها جمال الروح وخفة الظل، فأنا من أشد المعجبين بمنشوراتك ومواضيعك، منذ فترة وأنا أتابعك في صـــمت حيث لا أحبذ التحدث مباشرة مع من ربما يخجلها ذلك".

أرســلها لها وابتســم خفية في نفســه وكأنها ســتراه منتظرًا أن تلتقط الطعم وتبدأ في الحكايا والشكوى، انتظر كثيرًا فلم يتلق استجابة..

_"هي تلعب دور صــعبة المنال حســنًا ســيكون لنا لقاءات أخرى وسأقتص منك على مهل لأذيقك وبال ذلك التمنع المزيف كل ما في الأمر أنك تحتاجين لمجهود أكبر ومزيد من الصبر"

هكذا كان يُلقن نفســه الصــبر، ولأول مرة في حياته يقضي_ وقتًا في معرفة الجديد في عالم الكتب، قرأ في الأدب، الفلسفة، المنطق حتى النسبية لأينشتاين وأخذ بالبحث في الموضوعات الدينية التي يعلم ميلها لها ولو ظاهريًا عكف أيام على القراءة وبدأ يأنس بها رغم تكلفة ذلك في البداية، ثم بدأت علاقة عقل مع عقل مصــحوبة بعاطفة خجولة من رغد التي تثير نخوته باللجوء إليه لاســتشــارته في بعض الأمور، كأن بينهما ســنوات من الثقة والمعرفة تضــعه أمام رجولته وما تقتضــيه من مســؤولية النصــح والحرص عليها، وإن بدا ذلك متعارضًــا مع رغبته المطموســة في الوصــول للنهايات السر.ــيعة الحاســمة، ظل يتابعها من كثب كل يوم يرى فيها جديد وتنوع يربكه يعصف بذهنه ثم يتركه في حيرة من أمره، كمثل تلك السلسلة من منشوراتها عن الصحابيات وتضحياتهم وزوجات الرسول _صلى

الله عليه وسلم_ وسيرتهن معه فتثير في نفسه العديد من التساؤلات بين إيمانه الراسخ بعداوته للمرأة وأنه لا توجد امرأة مستثناة أو خارج السرب، وبين إيمانه الأكثر رسوخًا بحقيقة تلك النماذج والأثر الذي تنشره هي ويترك بصمة بداخله، وكأن القدر يبعث إليه بعض الرسائل من خلالها، مضى شهران تبعهم ثلاثة ثم تلاهم أربعة دون أن يشعر تفرغ فيهم كليًا لأجلها، يقرأ ما تحب ويكتب ما يعتقد أنها تفضله، يتحدثان بالساعات في شتى الأمور بعاطفة مغلفة بالفضيلة والحرص، فلم تكن تتجاوز في ردودها معه إلا أنها أصبحت دائمة الاستجابة لرسائله مستفيضة في الحديث معه بأريحية، يحاول أن يأخذ الحديث لمنحنى جسدي فيأتيه استقامة في الرد تُقوِّم انحنائه بلا عنف بل بمنتهى اللطف كأنها أم تأخذ بيده وتبين له الصواب بلا محاولة لعقابه، كطبيب يعرف أين الداء وكيف يداويه دون أن يذيق صاحبه مرارة الدواء، كلما تربص بها ليأخذها حيث يشاء من تيه ومتاهة أخذته إلى حيث الدليل والسلامة، كان ينسى أحيانًا ما عقد العزم عليه من نوايا تجاهها ويعود لتدارك ما نسى مذكرًا نفسه بماضيه مستزيدًا منه بشحنة أخرى من الغضب ليستطيع أن يواصل كان يرتفع لعنان السماء بما تمد روحه من سلام ويهبط لأسفل أرض بما يلح عليه من ذكرى فيعود لسابق عهده، حين ظن أن الفرصة سانحة له للقيام بالهجوم قبل أن تخور قواه كليًا من فرط انجذابه غير المعلن لها الذي يحاول إنكاره حتى عن ذاته، فعندما وجدها تناقش موضوعًا يتعلق بالعاطفة من منظور أدبي مضمنة موضوعها بعض أبيات الغزل، تفنن في الإتيان بمعسول الكلام كتعليق على موضوعها ليكسب

نقطة حاسمة، فعالجته ببيت من الشعر كان هو شخصيًا يترنم به ويعشقه في الأيام الخوالي!! فأخذ يتغنى بمدحها:

_"مذهلة كيف لها أن تفعل ذلك هل هي ساحرة أم قارئة للخواطر"

لم يتمالك نفسه من التعليق الصادق على ما كتبت بإكمال تلك القصيدة ممتلئًا بالدهشة من نسيانه هدفه الأصلي تدريجيًا وكأنها كل يوم تسدل ستائر بينه وبين ماضيه ليفتر غضبه وتبهت الذكرى ويؤخذ لعالم آخر من الوضوح والسكينة، إلى أن أتته رسالة منها تخبره أنها ربما تتوقف عن التواجد في هذا العالم الافتراضي لتعرضها لبعض الضغوط التي لا تعلم كيف تتعامل معها....

كان نص رسالتها:

_"أيها الغالي في زمن رخصت فيه الغوالي، أيها الرجل الذي بذكره آنس وحشتي وأقوى به على ضعفي، أيها الصديق الوفي المعلم الفاضل والتلميذ النجيب ولا تتعجب ففيك اجتمعت كل الصفات وبك عادت إليَّ نفسي، وثقتي التي أضاعها غيرك من أشباه الرجال مما أسمع من صديقاتي ومما أرى ممن حولي رغم عدم تعرضي لتجربة مثيلة حتى أنني يومًا ما كنتُ قد اتخذت عهدًا على نفسي ألا أتعامل مع رجل بشكل شخصي ما حييت خوفًا على قلبي وروحي من الدنس حتى أتيت أنت فنسيت قسمي لأجد فيك باحة من شروق تزيل عن نفسي أشباح الظلمة التي صنعها غيرك في الخيال لكن غيرك أبى إلا أن يقلق سلامي بمطاردته لي على تلك المساحة

من العالم الخيالي الذي لا أجد بد من الاختفاء منه حرصًـــا على قناعاتي" .

أنهى قراءته وراح يفكر في من ذا الذي يطاردها، ويتساءل كيف ترحل هكذا، وكيف لا يصـــل معها إلى أي نتيجة!! كيف يمكن أن تختفي من حياته هكذا ببســاطة، كان ينتظر أي رســالة منها بفارغ صـبر إلا تلك الرسالة التي أتت لتصفعه مرتين إحداهما لوضعها ثقتها بأمانته وظنها الحســـن برجولته التي تفرض عليه إســـباغ الحماية لها، والأخرى لإعلانها انســـحابها من حياته! توقف عند المعنى نعم من حياته، متفاجئًا مأخوذًا من فِكرِه أنه ربما وقع أسير اعتياده عليها..

_" ستُجن يا عمار"

أخذ يرددها قاطعًا غرفته ذهابًا وإيابًا محدثًا نفسه بغضب: _"قطعًا سأجن كيف لها أن تفعل ذلك، كيف لي أن أترك نفسي. لأصل لتلك المرحلة"

ثم ينفي ذلك في محاولة أخيرة للتشـبث بعداوته مع نوعها النســائي محاولًا اسـتدعاء أي ذكرى يسـتمد منها بعض العون على المواجهة بلا جدوى، قضىـ ليلة تائهًا بين المتناقضـــات الممزقة لثباته لم يعرف فيها للنوم سـبيل حتى جاء الصـباح ليجده مهزومًا مجهدًا لا يقوى حتى على رفع الراية البيضـاء وفي لحظة عبقرية من القدر كما وصـفها بداخله قرر أن يأخذ خطوة جريئة رأى أنه قد حان وقتها، فأمسك حاسوبه ونبضاته تعلو على صوت لوحته للكتابة.

_"رغد بلا حرج وبلا ادعاء أنا أرغب في المزيد من التعرف عليكِ أراك بخيالي كأن لك جناحين من الرحمة وقلب من الذهب فأرغب

في أن أرى تلك الملامح التي حملت هذه المعاني ربما كان لنا شـــأن آخر معًا"

تمنعت بكل الطرق بدايتا من الرفض الصريـــح إلى محاولة الإقناع بعدم جواز ذلك منتهية إلى التحجج بكل حجة واهية أمكنها الإتيان بها.

أثارت جنونه فقد أصبح يريد أن يراها بالفعل، لا يمكن أن يكون كل هذا ادعاء وتحايل ربما صدق صديقه في حكمه على الأمور ربما هي بالفعل فتاة فاضـــلة جميلة الروح بل وخفيفة الظل رقيقة القلب، صمتت أفكاره فجأة عندما تذكر صديقه!! كيف سيبرر له ما فعل لقد بات واضحًا أنه هو الذي تعلق بها وكان عذره سابقًا هو إنقاذه من الوقوع في خديعة تلك العاهرة أما الآن فكيف يبرر له رغبته في رؤية الفتاة وربما الارتباط بها، بعث إليها رسـالة أخيرة قبل أن يعقد العزم على مفاتحة صديقه والاعتراف له بمكنون صدره ويضع الأمر بين يديه ليرى إلى ماذا ستؤول أموره.

_"أرجوك وأتوسـل إليك، سـأخبرك شـيئًا فقط أرجو أن تسـمعيه بأذنيك وأن يصـــل إلى روحك الطاهرة، ولن أنتظر ردًا منك فقط اسمعيني"

أرسل رسالته وانتظر إلى أن واتته الإشارة برؤيتها لها، قام بالاتصال بها فاستجابت صامتة بلا أدنى صوت من طرفها، قال لها هامسا وبتأكيد لا يقبل الاحتمالات.

_"ستكونين لي".

ثم أغلق حاسوبه قافزًا ليبحث عن شوقي ويخبره بكل ما حدث..

في منزل الجدة كان صديقه، ممسكًا برأسه منكفئا على فنجان قهوته الذي لم يســـمح له الوقت بأن ينهيه، فاجأه بزيارته بلا أي موعد ســابق بينهما خلافًا للعادة، وصــل إليه متعرقًا الجبين كمن يجاهد ألمًا لا قبل له باحتماله، ثم جلس مكفهر الوجه متلاحق الأنفاس بعد أن أفرغ ما في جعبته من رواية كل ما حدث منه وله معها، ظل منتظرًا منه أي رد فعل، لكن بلا طائل ربما أشـــفق عليه ومنحه الغفران وأتاح له الفرصة ليحيا من جديد فهو على أي حال لم يمضِ في إعجابه بها ولم يأخذ أي خطوة تجاهها على حد علمه، فهي كانت تحادثه طوال الوقت وهو على ثقة ويقين بأن ليس في حياتها متسع لآخر ..

_"ماذا؟ "

سؤال ألقاه عليه كتحصيل حاصل، كان كمن يقذف حصاه في بركة ماء، منتظرًا أي إجابة من ابن خاله، بينما قام الآخر بصعوبة مأخوذا شارد الذهن، لم يلفظ سوى بجملة واحدة:

_"سأصنع قهوة وآتيكَ..... رأسي يكاد أن ينفجر"

تركه يذهب وحده لصـــنع القهوة، أراد إعطاءه بعض الوقت ليهدأ ويستوعب ما قصه عليه وجلس شاغلًا نفسه بتفحص تفاصيل المكان التي يحفظها عن ظهر قلب فوقعت عيناه على حاســـوبه مفتوحًا باتجاهه نسىـــ أن يغلقه في غمرة توتره ومفاجأته، قرر أن يشغل نفسه بمتابعة ما تفعله إلى أن يحضر شوقي، ويطلب منها أن تدعو له فهو في موقف لا يحســـد عليه، بمجرد أن لمس مفاتيح الحاسوب أنارت شاشته فهو لا يضع كلمة سر له، وما حاجته لذلك

مادام يحيا وحيدًا ولا يشغله إطلاع أحد على خصوصياته، بالإضافة إلى أنه لا يســتعمل الحاســوب إلا في النادر فهو دائم التعامل مع الانترنت من خلال هاتفه، وعندما هم بإغلاق صفحة صديقه التي شغلت الشاشة أمامه، وقعت عيناه على جملة - أرجو أن يصل إلى روحك الطاهرة فقط اســمعيني_ فاتســعت عيناه على قدر اســتطاعتهما وهبط قلبه ما بين قدميه مثيرًا في عقله عاصــفة من التســاؤلات هل بعثت إليه بالرســالة التي بعثها هو إليها ؟ هل هي على علاقة به وتخبره بما كان بينهما؟؟؟ هل كلهن خائنات بالفعل كإيمانه الســابق؟؟؟ انتبهت حواســه وبدأ في تصــفح باقي الرســائل ليعرف المزيد ليصل إلى الحقيقة لم تكن رغد إلا شوقي ذاته!! مرت عشر دقائق عندما حضر صديقه ليجده متصلبًا أمام شاشة حاسوبه فسقط من يده فنجان القهوة محدثًا صوت، انتبه على إثره ناظرًا له نظرة فارغة من المعنى مادًا إليه كلتا يديه متسائلًا:

_" لماذا؟ أنا أخوك وصديق عمرك لماذا؟ .."

انهار الآخر على أقرب مقعد ناظرًا بين قدميه موجهًا حديثه له دون القدرة على رفع عينيه إليه..

_"سأخبرك بكل الحقيقة، ولا أطلب منك الغفران فأنا أعلم أنك لن تستطيع منحه لي، لكن لأرفع هذا العبء عن ضميري الذي ينصب لي كل يوم مقصــلة تصــيب كل ما في حياتي بدمار وموت أعياني إخفاؤه عن العيون لأحيا أمام الناس وأنا دفنت جثتي بداخلي، ما أنا إلا ميت يجيد التظاهر بالحياة، لم تكن تنظر إليك أنت بل كانت تنتظر ظهوري بكل ما شــاهدته في عينيها من لهفة، كانت حبيبة

صـــباي وكنا في انتظار أن أتخرج لأتقدم إليها، ظنت أنك على علم بذلك وتشـاكسـها على كونها عروس ابن خالك وأخيك القادمة إلى أن تقدمت لخطبتها أنت وعندما صـارحت أبي بما بيننا من مشـاعر أقســم على أنها لو كانت آخر فتاة على وجه الأرض لن تكون لي بعد خطبتك لها، فماذا يقول لعائلته وبماذا يبرر؟ كنت صغيرًا وضعيفًا، لا أملك من أمري شـــيئًا فأخبرتها بعدم قدرتي على المواجهة، وبالفعل تمت زيجتك منها ولحبك لها وظنك أنها كانت بانتظارك أنت كل يوم بالشرفة لم تلحظ عزوف مشـاعرها عنك، ومحاولتها إخبارك بأكثر من طريقة وفى أكثر من مناســبة عن حقيقة الأمر، لم تكن يومًا فتاة مسـتهترة ولا عاهرة، لم يحدث بيننا شيء مشـين كنا نلتقي بعد وفاة والدي ليبث كل منا للآخر لوعته ومشـــاكله وعبث القدر بمصـيره، لم نكن نعلم بأن تلك الشـقة التي أسـتأجرها عدة ساعات كلما أردت أن ألتقيها سرًا مكان مشبوه ومراقب فقط لم نكن نريد أن يرانا أحد فيجرح كبريائك قبل أن تطلب منك الانفصـــال لنتزوج بعد وفاة والدي وعدم وجود أولاد بينكما، لكن حال بين كل ذلك وبين ما كان سيحدث إصابتها الصادمة في مقتل حين اقتحمت الشرـطة الباب فانهارت أمامي، ولم أدرِ ماذا أفعل إلا أن أقفز من النافذة بلا وعى لما أفعل، كل ما خطر في بالي أنه يجب أن أهرب لأحاول معالجة الأمور بعد ذلك، لم يخطر ببالي أنها ماتت من هول المفاجأة"

توقف عن الاسترسال حين لمح امتقاع لونه أمامه واندهاشه كأنه لا يعلم عن ماذا يتحدث!! وانتبه إلى أن رد فعله لم يكن ليكون طبيعيًا لو أنه قرأ رســائله القديمة لها على حاســوبه، حيث كان يســتعيد

ذكراها قبل مجيئه ولم يتذكر أنه ترك صـــفحة رغد هي الأخرى مفتوحة فأردف بارتباك كأنها هلوسـة مخمور لا يعرف كيف يصـنع جملة مفيدة.
_" أنت.. أنت عن ماذا كان سـؤالك؟ أنت لم تقرأ رسـائل ثناء؟؟ اانا .. اااانا.. أنت قصـــدت رســـائل تلك الفتاة التي كنت أرســـلها إليك لأخرجك من حياة العدم التي تحياها، لأقنعك بأن هناك فتيات لسـن خائنات وأعيد إليك ثقتك بالحياة التي تسـببت أنا في فقدانك لها بلا قصـــد والتي كنت أموت ألف مرة كل ليلة وكل ســـاعة لعدم قدرتي على توضيح الحقيقة".
تحدث إليه أخيرًا بصـوت مبحوح كان يتحدث كشـخص ذبح للتو، مشيرًا إليه أن اصمت ثم جر قدميه إلى أسفل البناية ماشيًا أو زاحفًا بما تبقى له من إرادة على غير هدى يتردد في عقله صـــدى جملته الشهيرة

"كلهن خائنات" ..
تمت بحمد الله